الفقهاء الأربعة للأطفال

الإمام أحمد بن حنبل الشيباني

إمام المحدثين، وأعلم أهل زمانه!

محمد إبراهيم سليم

سليم ؛ محمد
الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى: تأليف محمد إبراهيم سليم
القاهرة: دار الطلائع للنشرو التوزيع ، ٢٠٢١.
٤٨ ص ؛٢٤٤سم
سلسلة الفقهاء الأربعة للأطفال
تدمك: ٤ ٩١٥ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ قصص الأطفال
أ ـ العنوان
٨١٣,٠٢

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٥٤٨
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 277 - 915 - 4

تصميم الغلاف الفنان: زكريا عبدالعال

٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعي -
خلف التوحيد والنور - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٢٧٤٤٦٤٢ (٢٠٢+)
تو فاكس: ٢٣٨٩٦٦٤٩ (٢٠٢+)
E-mail : info@altalae.org
Web site: www.altalae.org

جميع الحقوق محفوظة
للناشر
يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.
© 2021

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قالوا: من ليس له ماضٍ فلا حاضرَ له!

وإذا كُنّا نعملُ ليلَ نهارَ على بناءِ «**حاضرِنا**» في ضوءٍ من ماضينا المجيد -فإنه لَيُسعِدُنا أن نقومَ برحلةٍ تاريخية إلى «**عصر الأئمة العِظام**» لنَقْتَدِيَ بهم، ونهتديَ بهُداهم في مسِيرتنا لعُبورِ «**القرنِ الحادى والعشرين**» إلى مستقبلٍ مشرقٍ سعيدٍ، يتناسبُ مع مَاضينا المجيد!

• فلْنَرْكَبْ «**قطارَ التاريخِ**» ليَعبُرَ بنا «**نفقَ الماضي**» إلى «**بَغدادَ**» عاصمةِ الخلافة الإسلامية، ومَسْقَطِ رأسِ «**الإمامِ أحمدَ بنِ حنبل**» رابعِ أئمةِ الفقه الإسلامى مَوْلِدًا وظُهورًا.

• ففي «**بَغدادَ**» تشهدُ مولدَ «**الإمام**» سنة أربع وستين ومئة من هجرة المصطفى ﷺ.

لقد توغلنا في أعماقِ التاريخ، لنُعايشَ إمامًا صابرًا محتسبا كان حافظًا للسنة، وقُدرةً لأهل الحديث، وأعبد أهلِ زمانه!.. نعايشَه في المكان.. والزمان!

ونعيشَ أحداثَ التاريخ، ونشهدَ وقائعَه مع رابع أئمة الفقه الإسلامى؛ لنستلهمَ ماضينَا المجيد، ونحن نبنى حاضرنا السعيد!

وكما ارتحلنا إليه، فإنه سوفَ يرتحلُ بنا حينَ يبلغُ «**الخامسةَ عَشْرةَ**» في طلب حديثِ رسولِ الله ﷺ.ن بغدادَ إلى البَصرة.. ومن البَصْرة إلى الكوفةِ.. ومن الكُوفَةِ إلى مكةَ المكرمةِ.. ومن مكةَ المكرمةِ إلى المدينةِ المنورةِ..

ومن المدينةِ المنورةِ إلى اليمنِ السعيد؛ ومن اليمن إلى بلاد فارس!!

ثم يعود بنا إلى بغدادَ! حيث تكون أمه في انتظاره!

• لقد كانت هذه الرحلاتُ خيرًا وبركةً حيثُ حَفِظَت للمسلمين الألوف من أحاديثِ رسولِ الله ﷺ. وجَمَعتهم حولَ الأصلِ الثاني من أصول التشريع الإسلامى!

• وعندما استقرّ به المقامُ، وألقى عصاهُ ببَغدادَ، التف حول حلقته بالمسجد الجامع دارسو الفقه والحديث لينهلوا من فيض علمه حين خَصّصَ لهم «**بعضَ الوقتِ**» أمامَ تلك الواجبات التى كان عليه أن يُنْجِزَها!

لقد كان عليه أن يعكِفَ على ما جمع من الأحاديث ليختارَ منها «نيِّفًا وأربعين ألفا» ضَمّنَها كتابَه «**المُسْنَد**».

•"وسوف تُتيحُ لنا هذه «**الرحلةُ المباركةُ**» معايشةَ الإمامِ أحمدَ لنعرفَ «**ملامحَ مَذْهَبِه الفقهي**» والأصولَ التى اعتمد عليها حتى أصبح أحدَ «**أصحاب المذاهب الأربعة**» الباقية إلى يومنا هذا لتكون مرجعًا للناس وإمامًا في أمور دينهم ودُنياهم في شتى أنحاءِ المعمورة!

• وسوف تُتيح لنا هذه الرحلة لقاءً مع الإمام أحمدَ في «**المحنةِ**» التي تعرض لها، والفِتنة التي زُجّ به فيها؛ لا لذنبٍ جَناه سوى دفاعِه عن الحق، وثباتِه على المبدأ، وتمسُّكِه به، وقبضِه على دينه! وحمايته للإسلام! ولكنه ظلَّ شامخًا ثابتًا كالجبلِ الأشَمِّ.. لم يَضعُفْ أمام السجن والضربِ بالسيِّاطِ، وسيَلان الدمِ منه حتى أُغمى عليه!

• وحار خصُومه فيه حتى قيّضَ الله له من أنصفه، وعرف فضلَه، وقدَّره حقّ قدرِه، واعتذر إليه عما حدث له!

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]

وخرج من المحنة كالذهب الإبريزِ حين يخرج من النار أصفر برّاقًا لامعا!

• لقد أوصت أُمٌّ عربية وليدَها فقالت: «**يا بُنَيّ؛ كُنْ في الفِتْنَةِ كابن اللَّبُونِ (الجمل الصغير)؛ لا ظهر فيركب ولا ضَرْعَ فيُحْلَب!**».

وكذلك كان «الإمام أحمد» فخرج منها بسلام! لم تلن له قناة، ولم تضعُفْ قواه!! إن حياته مدرسة لكل من شاء أن يحيا حياة كريمة شريفة!

ولكن من أحب أن يتفقه في دين الله، ويعايشَ الأئمة، ويقتديَ بهداهم!!.

فتعال نبدأ رحلتنا إليه.

محمد إبراهيم سليم

الأبُ والجَدّ

ربما ظَنّ بعضُ القارئين أو السامعين أن الإمامَ «أحمد» هو ابن «**حَنْبَل**» كما يبدو من التسمية لأول وَهْلَة!

ولكن الواقعَ والحقيقةَ أن «**حنْبَل**» جَدُّه وأن أباه اسمه «محمد» فهو: «**أحمدُ بن مُحَمدِ بنِ حَنْبَل**»

فلِمَ نُسِبَ إلى جَدّه، ولم يُنسَب إلى أبيه؟

يقول المؤرخون:

إن أباه محمدًا كان جُنْدِيًا من أَجْنَادِ «**مَرْو**» بفارس، في الجيش العربيّ العباسيّ.

وترك قيادتَه في الجيش، وعاد إلى «**بَغْداد**» عاصمةِ الخلافةِ الرسمية آنذاك ومعه زوجتُه «**الشِّفَاء**» وهى حامل بأحمدَ فولدته في بغدادَ في شهر ربيع الأولِ سنةَ أربعٍ وستين ومئةٍ!

ويشاء الله – ولا رادّ لمشيئته – أن يَلْقى «**محمدٌ**» والدُ أحمدَ ربَّه وهو في سنِّ الثلاثينَ قبل أن يَسْعدَ بولده أحمد، ونشأ أحمد يتيما ترعاه أمُّه، وتسهرُ على تربيته!

لكنَّ هذا اليتيمَ يَنْتمِى إلى أسرةٍ لها مجدُها في عهدِ الدولتين: الأُموية والعَبّاسية!

فلقد كان جده «**حَنْبَل**» واليا بخُراسان فليُنسَب إلى جَدِّه، وليكن اسمُه: «**أحمدَ بنَ حَنْبَل**»

إن أباه وأمَّه يَنْتَمِيَان إلى قبيلة «شيَبْان» وهى قبيلة «**عَدْنَانيّة**» لها شأنها عند العرب، وإنه لَيَلْتَقى مع النبى ﷺ.ي جده الأعلى «نِزار».

فلْيُبارك اللهُ هذا الوليدَ اليتمَ!

ولْتَحرُسْه عنايةُ الله!

ولْتَهَب الأمَّ الشابةُ حياتَها لأحمدَ وحدَه.. ولْتُفِق عليه من غَلّةِ عَقارٍ تركه أبوه!

وليكْفُلْه إلى جانبها عمُّه!

وأصبح كلُّ هَمِّ أمِّه أن تُربِّيَه فتحُسْن تربيتَه.. وأن تؤدبَه فُتحْسنَ تأديبَه!

أمر أحمد!

كانت «أمُّ أحمَد» من أسرة أبيه «شَيْبَانِيّة».. وهى إحدى الأُسَرِ العربيّةِ العربيّةِ العريقة ذاتِ الخلقِ والدينِ!

وكما كانت لأبيه نعمَ الزوجةُ في غُربته!.. كذلك كانت لأحمدَ نعمَ الأُمّ في يُتْمِه، فلم يَشْعُر باليتم!

فهنيئًا له بها!

وهنيئًا لها به!

ومن أجل هذا النوع من الأمومة، أوصى الرسولُ ﷺ.ن يرغب في الزواج بقوله:

«**فعليكَ بذاتِ الدينِ**» (متفق عليه، واللفظ لمسلم)

لقد عكفتْ على تربيتِه، وحَبّبتْ إليه العلمَ.. ووضعت أقدامَه على طريقه.. وباركتْ خُطاه.. وظَلّت عنايةُ اللهِ ترعاهُ؛ حتى صارَ للناس إمامًا يُقْتَدى به!

النشأةُ الأُولَى

في عاصمةِ الحكم الإسلاميّ «بَغدادَ» فتح أحمدُ عَيْنَيْه على الدنيا! و«بَغداد» يومئذ مَوْطنُ العِلْمِ الإسلاميِّ، وحاضرةُ الخلافة.

فكانت آنَذاكَ زاخرةً بأنواعِ المعارفِ والفُنون الإسلامية.. فيها القُرّاء.. وفيها المحدِّثون.. وفيهَا الفُقهاء.. وفيها الفَلاَسِفَةُ والحكماءُ!

وفيها علماءُ اللغة.. وكِبارُ الشُّعراء وفَطَاحِلُهم.

وراحت أمُّه تفكّرُ في مستقبل هذا اليتيم، وهى تقوم على تبيته برعاية عمه!

وتحلُمُ بقدوم ذلك اليوم الذي يَسْتعيدُ فيه أحمدُ مَجْدَ آبائه بسُلطانِ العلم، وما أعظمَه من سُلطان!

حتى يصبحَ واحدً من أولئك العلماء الذين يُشارُ إليهم بالبنَان!

إن كلَّ شيءٍ مُعَدّ إذا كانت عقولُنا كذلك!

فَلْيبْدَأ أحمد من حيث بدأ أولئك الذين مَلَئوا الدنيا وشغلوا الناسَ بِعلْمِهِم.. ولْتضع «أمُّ أحمدَ» اقدامَه على الطريق؛ فالمسافات البعيدةُ تبدأ بخُطوة!

إذا عُرف السببُ بطلَ العجب!

مَن يتتبعْ حياةَ الأئمةِ الأربعةِ:

1 – أبى حنيفةَ النّعمان.

2 – ومالكِ بنِ أنس.

3 – ومُحمدِ بنِ إدريسَ الشافعيّ.

4 – وأحمدَ بنِ حنبل الشَّيْبانى.

يجد أثر الأمِّ واضحًا جَلِيًّا في حياتهم.. وفيما تحلَّوْا به من عِلْمٍ، وخُلُقٍ، وفِقْه جعلهم موضعَ القُدوة، ومَناطَ الأسوة على مَرّ الزّمان!

إنهَا الأمُّ صانعةُ الرجالِ.. ومُرَبيةُ الأجيال.

نراها دائما من وراءِ العُظَماء والأبطال وأعلام الرجال!

أَلَيْسَتْ راعيةً ومَسئولةً عن رعيَّتها كما هو شأنُها في الإسلام؟!.

فلْتُجَبّب إلى وليدها العلم..

ولْيَسِرْ إليه أحمدُ بخُطُوَات مَحْسُوبة..

ولْتَضَعْ أقدامَه على الطريق!

لقدَ حَمَّلها الإسلامُ المسئولية!

فهى راعيةٌ، ومَسئولةٌ عن رَعيَّتها!

و «أحمدُ» هو رَعِيَّتُها في المَقامِ الأول!!

فليكن شُغْلَها الشاغل!

ولْتَعِشْ على الأمل!

والطريق إلى تحقيق الأمل هو العمل، والإصرار ليلَ نهارَ على بُلوغ الهدف!

إن الواجباتِ أكثرُ من الأوقات..

ولا وقت لدى أحمدَ لكى يَضيعَ فيما لا جدَوْىَ من ورائه!

وينشأ ناشئ الفِتْيانِ مِنّا على ما تَعَوّد!

فْلَتغْرِسْ أمُّه فيه أجملَ العادات!

من هنا كانت البداية

وأجمل العادات.. عادةُ القراءِة، فهى مِفتاح العلوم!

ألا وإن أولَ كَلِمَة نزلت على نبينا ﷺ.ي القرآن الكريم هى قولُ الله تعالى لنبيه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: 1].

وابتدأ أحمدُ حياتَه الفكرية بحفظِ القرآن الكريم في سِنٍّ مُبَكِّرة!، وقراءته..

ولقد وهبه اللهُ -سُبحانَه وتعالى- ذاكرةً لاقطةً حافظةً، فأَتَمَّ ما بدأ في زَمَن قياسيّ، لقد خطا أحمدُ خُطوةً على الطريق!

وإن شئت فَقُل: وضع الأساسَ لجميع العلوم التى ينبغى أن يُحَصّلها حتى يُصبحَ للناسِ إماما!

الخُطْوةُ الثانية

وكانت الخطوةُ الثانيةُ «**طلبَ الفِقه**» .. معرفة الأحكام .. وبيان! الحلالِ والحرام!

فمَنْ ذلك «**الإمامُ**» الذي يُرْجع إليه في الفِقْه، ومعرفةِ الأحكامِ، وبيانِ الحلال والحرام حتى تقول أُمُّه باختياره لأحمد!

إنه «**أبو يوسف**» صاحبُ «**أبي حنيفةَ النُّعمان**»، وحاملُ لواءِ فِقه «**أهلِ الرأي**» ببغداد، وقاضى قُضاةِ الدولة العباسية آنذاك!

فهو المرجعُ لمن أرادَ أن يتفَقّه في دينِ الله!

فليأخذْ علمَ الفقِه عَنْه..

ولْيَتَتَلْمَذْ عليه، وعلى غيرِه مِمّن يَحْمِلُون رايةَ الفِقْه!

يسمعُ منهم.. ويأخذُ عنهم.. ويتلقّى أصولَه على أيديهم حتى يكونَ أهلًا لِحَمْل الراية من بعدهم!

إن التَّفقُّهَ في الدين مسئوليةٌ جَماعية إذا قام بها البعض، وتولى مهمة إنذارِ قومه، ناب عن الباقين!

إنه يطلبُ الفِقْهَ استجابةً لأمر الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

ولكنّ أحمدَ يقفُ مع نفسه وقفةً مُتأمِّلَةً على الطريق.. بعد أن خطا فيه خُطُوات.. وقَطَع مَسافات!

إن «علمَ الفِقه»، ومعرفةَ الأحكامِ.. والحلال والحرام يتوقفُ على أمرين، ويستندُ إليهما.. ويعتمد عليهما في أحكامه، وأصوله، وفروعه، ومسائله.

أما **أحدهُما**، فهو «القرآن الكريم»، وقد وعاه!

وأما المصدرُ الثاني للفقهِ الذى به يُعرف الحَلَالُ والحرامُ، ويتمكنُ به الفقيهُ من معرفةِ الأحكامِ، واستنباطِها، واستخراجِها، واستخلاصِها فهو «**السُّنّه المطهرة**»!!

إنها **المصدرُ الثاني** بعدَ القرآن الكريم.

وقد أجمع «**فقهاءُ المسلمين**» على الاحتجاجِ بالسنةِ، واعتبارِها مَصْدَرًا للفقهِ الإسلامى.

ومن هنا قرَّرَ «أحمدُ» أن يُلِمَّ بَمصْدَرِ الفقهِ الإسلاميّ قبلَ أن يُوغِلَ فيه، حتى يكونَ على بيِّنَة من «**أدلةِ الأحكَامِ**» من حَلالٍ وحرامٍ.

وكان ذلك في سِنّ مُبكِّرَةٍ!

فلْيتَّجهْ إلى «**الحديثِ**» يَطْلُبُه عندَ المحدِّثين والحُفّاظ..

الذين يَحْفَظُون حديثَ رسول الله ﷺ: يْنَما كانوا، وحيثما حَلُّوا!

ويقول أحمد: طلبتُ الحديثَ سنةَ تسع وسَبْعينَ ومئةٍ! ومعنى هذا أنه طلب الحديث، وهو ابنُ خمسَ عشْرةَ سَنَة!

الرحلة في طلب الحديث

«رأيت ببغداد شابا إذا قال: «حدثنا»،
قال الناس كُلهم: صدق!!
(الشافعى)

طلب الحديث!

لقد بدأ أحمد في طلب الحديث وهو في مطلع شبابه، يسمع من هؤلاء وأولئك، ويُسَجّل ما يَسْمع!

لقد بدأ في «**الخامسةَ عشْرةَ**» من عمره يطلبُ الحديثَ في «**بغدادَ**» على شُيُوخِه مُدّةَ سبع سَنوَاتٍ: حتى أخذَ عنهم كلَّ ما لدَيْهم من حَديث رسولِ الله ﷺ!

فلْيَرْحَلْ إلى «**البَصرة**» للقاءِ شُيوخ الحديثِ وأهلِه، وأقام بالبَصْرَةِ عامًا كاملا يَنْهَلُ من عِلْمهم، ويُسَجّل عنهم ما صَحّ من حديثِ رسول الله ﷺ. حتى إذا تحققَ له ما أرادَ عزَمَ على الرّحيل في طلبِ الحديث! ولكن إلى أين يا تُرَى؟!

إلى الحجاز.. إلى «**أهل الحديث**»، وكان معه رفاق له، التقَتْ كلمتُهم وصحّ عزمُهم على طلبِ الحديثِ من منَابِعِه، ومواطنه!

وهناك التقى بالإمام «**الشَّافعيّ**» بالمسجد الحرام، وسَمِع منه هو ورِفاقُهُ، فبَهرهُ ما رأى من علِمِه، وقال لرفاقه الذين قَدمِوَا معه:

«**إن فاتنا علمُ هذا الرجل، فلن نعوِّضَه إلى يوم القيامة**» ولم يَفُتْهُ علِمُ الشَّافِعِيّ!

ويذكر أحمدُ أمه صاحبةَ الفضلِ عليه فيعودُ إليها ببغداد! وتتوالى رَحَلاتُه في طلب الحديث إلى البَصرةِ حتى يُرْوَى أنه رحَلَ إليها خمسَ مَرّات!

ونادتْه «الكوفةُ».. فرَحَل إليها..

وتوالتْ رَحلاتهُ إلى الحجاز.. فرحَلَ إليه خمس مرّاتٍ.. كان آخرُها حين حج سنة 198 هـ واستمر حتى عام 199 هـ.

وقد حجّ ماشيًا ثلاثَ مَراتٍ نظرا لضيق ذات يده! ومِنْ عَجبٍ أنه ضلَّ الطريق في إحداها!

وعاد إلى الكوفةِ ليُعِدّ العُدَّةَ للرحلةِ إلى «**اليمن**» لطلب الحديث من «**عبد الرزاق بن هَمّام**» المحدِّث المشهور!

وعلى الرغم مِنْ أنه لَقِيَ شَيْخه «**عبدَ الرَّزّاق بن هَمّام**» بالحجاز، وكان بإمكانه أن يأخُذَ عَنْه!

لكنه آثر أن يتحملَ الصِّعاب للذهاب إليه في «**اليمن**» مهما كان الثمن! أدبًا منه، ورحمةً بأستاذه، وتقديرًا لعلمه!

إن عدد شيوخه الذين روى عنهم في «**مُسْنَدِهِ**» مئتان وثمانون ونَيّف!

وما أكثر من لَقِيَهم ولم يَرْوِ عنهم!

لقد تحمل الكثير في طلب الحديث خلالَ رحَلاتِه إلى شَتّى البقاع نظرا لضيقِ ذَات يده، واعتماده في الكسب على نفسه!

وحاولَ بعضُ الاغْنياءِ الذين كانوا في صُحبته خلال رَحَلاتِه أن يُقْرضوه من المال ما يُساعدُه على القيام برحلته فردّ عليهم أموالَهم شاكرًا لهم مشارَهم الطيِّبةَ!

إن لا يريدُ أن يكونَ لأحد من العبادِ فضلٌ عليه إلا فضلَ العلم والتَّلقِّى!

وفي سبيله تهونُ كلُّ المتاعب.. وتسهلُ كلُّ الصِّعاب!

لقد كان يعتقدُ في قرارةِ نفسه أنه كُلّما عَظُمت المَشقّةُ في طلب العلم؛ اشتد الحرصُ على ما حَصّله!

ولأن الطلب من «**الشيخ عبد الرزاق**» حين يستقرُّ ويطمئن خيرٌ من طلب علِمه وهو مسافر في رحلة حج!

ولهذا قرر أن يسافر إليه في «**صَنْعَاء**»! وكأن لسانَ حالهِ يردِّدُ مع الشاعر:

*** لابدُ من صَنْعَا وإن طالَ السَّفَر ***

وفي الطريق إلى «**صَنْعَاء**» لطلبِ حديثِ رسول ﷺ، «**المصدر الثاني للفقه الإسلامى**» أصابه جَهْدَ شديد ونفِدَت نفقاتُه!!

وأراد موافقوه في السفر أن يَمُدّوا له يدَ المساعدة والعون: فرفض في إباء وشمم!

لقد كان أبيّا عزيزَ النفس!

إنه لم يكنْ يقبلُ المساعداتِ ولا يأكلُ إلا من عمل يده!

لقد كان يؤجِّر نفسَه للجَمّالين بقليل من المال.. وكاني قومُ ببعضِ أعمالِ النسيجِ ليُنْفِقَ منه!

واشتغل نسّاخًا حتى يحققَ الهدفَ من رحلاته!

واجتمعت لأحمد خلال رحلاته مئاتُ الأحاديث النبوية فراح يرويها للناس ويعمل بها!

عودة!

عاد الإمام أحمدُ إلى بغدادَ مَسقطِ رأسه بعد تلك الرحلاتِ المباركةِ في طلب الحديثِ، ولقاءِ رجالِه، والسماعِ منهم.

عاد ليلتقيَ بالإمامِ «**الشافعي**» عالمِ قريشٍ الذى ملأ الأرض علما، وفِقها!

عاد ليَتَتَلْمذ عليهِ، ويَحْضرَ درسَه في الفقه والأصول على مدى ثلاثِ سنوات من سنة 195 إلى سنة 197 هـ وحينما رحل «**الشافعي**» من بغداد إلى مصر كان الإمامُ أحمدُ قد اكتمل نموُّه، واتسعَ علمه مما جعلَ الإمامَ الشافعيّ يقول:

«**خرجت من بغدادَ، وما خلّفت بها أفقَهَ، ولا أورعَ، ولا أزهدَ، ولا أعلمَ من أحمد**». وقد وصفه إبراهيم الحربى فقال:

«**رأيت كأن الله قد جمعَ له علمَ الأولين والآخرِين**»ز

أين هو؟

وليس أدل على ذلك مما روى أنه:

ذات يوم ضاق أحدُ شيوخه بطلاب حَلْقته! وغاظه عجزهم عن فهم الدرس، فصاح الشيخ فيهم قائلا: ألا تَفْقَهُونَ؟!

فقال الطلابُ: كيف لا نَفْقَهُ، وفينا «**أحمدُ بنُ حَنْبَل؟!**».

فقال: أين هو؟

ودخل أحمدُ، فقالوا: ها هو ذا. وجلس أحمدُ حيثُ انتهى به المجلسُ كما تعَوّد! وكما كان يفعل إلى آخر العُمْرِ! فقال الشيخُ لأحمد: تقدّمْ يا أحمدُ!!

فقال أحمدُ: «**لا أَخْطُو على الرِّقابِ!**» فصفق الشيخُ فَرَحًا: الله أكبر.. هذا أولُ الفِقْهِ!

بم تلين القلوب؟

لقد كان «أحمدُ» نَموذجًا فريدًا بين نظرائه!

فقد طاف رجل على فقهاء بَغدادَ يسألهُم واحد بعد الآخر:

بم تلين القلوب؟

قالوا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

ثم لَقِيَ أحمدَ بن حنبل، فسأله:

فعاد الرجلُ يطوفُ بهم جميعا، ويذكرُ لهم جوابَ أحمد! وكأنما نبّهَهم من غَفْلة! وفتح عيونَهم على الحقيقة!

فقالوا: «**جاء بالجوْهَر..**».

الأصْل كما قال..

كان أحمدُ يَسْمَعُ الحديثَ عن رسول الله صص، ويعملُ به ويُطَبّقُه على نفسه؛ فإذا هو صورةٌ للمسلم كما أراده الرسولُ ﷺ.إذا هو خيرُ عنوانٍ على الإسلام!!.

فمن أراد أن يرى الإسلام فلينظر إلى أحمد! ومن نظر غلى أحمد رأى الإسلام حقا وصدقا!!.

• روى عن الرسول صص:

«**كُلُّ مَعْروفٍ صدقة!**

ومن المَعْروفِ أن تَلْقَى أخَاك بِوَجْهِ طَلْق».

فكان يلقى الناس مبتسما!

• وكان رضى الله عنه يقول:

«**إذا أردتَ أن يدومَ لك اللهُ كما تُحبّ.. فكُنْ كما يحبّ!**».

• لقد كان شديد التواضع، فما زاده العلم إلا تواضعًا، وهكذا يكون العلماء!

ولقد قال له أحد تلاميذه:

جزى اللهُ الإسلامَ عنك خيرًا!!

فَغشّاه الحياءُ.. وقال:

جزى اللهُ الإسلامَ عنى خيرًا!!

ومن أنا ؟! ومن أنا؟!

• وقال الخلا: سمعت أبا القاسم الجبلى -وكفاك به- يقول: أكثرُ الناسِ يَظُنُّون أن أحمدَ إذا سُئل كأن عِلْمَ الدنيا بين عينيه.

• وقال أحمد بن سعيد الرازى: ما رأيت أسودَ الرأسِ أحفظَ لحديثِ رسول الله ﷺ. ولا أعلمَ بفقهه، ومعانيه من أحمدَ بنِ حنبل.

• وقال العباس بن الوليد البيرونى: حدثنا الحارث بن عباس قال: قلت لأبى مِسْهَر: هل تعرف أحدًا يحفظ على هذه الأمة أمرَ دينها؟

قال: لا أعلمُه إلا شابا في ناحيةِ المشرق.

يعنى: «**أحمدَ بنِ حنبل**»ز

• وقال في الفقه، ودقائقه..

• كان إماما في الحديث وضروبه..

إماما في الفقه، ودقائقه..

إماما في الورع وغوامضه..

إماما في الزهد وحقائقه..

تَحَرُّجُه من الجلوسِ للفَتْوى!

ولهذا..

طلب منه بعضُ المعجَبينَ به أن يتخذ له حَلْقَةً في «**المسجد الجامع**»، ويجلسَ ليُعَلّمَ الناس ويُفْتيَهم فيصيرَ إمامًا.

ولكنه تحرّج، فهو لم يبلغ الأربعين بعد!!

وإن شيوخَه أَحياءٌ.. والشافعيّ أستاذهُ ما يزالُ حيًا بمصر، فكيف يُفتى وهو على قيد الحياة؟!

إن هناك ما يشغَلُه عن الجلوس للفتوى والتدريسِ!

«**فهذه الأحاديث**» التى جمعها في رحلاته المضنية يريد أن يقف منها وقفة! إنه يريد أن يُسْنِدَ الأحاديث إلى رُواتها من الصحابة.. ويجعلَ لكل واحدٍ من الصحابة مُسْنَدًا يضم الأحاديثَ التى رواها وأسْنِدت إليه.

إن عملًا كهذا يحتاجُ إلى تفرُّغ له، وعُطُوفٍ عليه، وتمحيصٍ للأحاديثِ حتى يقومَ بعملٍ أجدَى على الناس من مجالسَ لا طائلَ من ورائها!

إنه يريدُ أن يترُكَ للناس بعده كتابا يكون إماما للناس من جميع الأجناس، يُتيح لهم أن يرجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ.ين يختلفون في أمرٍ مّا!

ولا وقت لديه ليقوم بعمل آخر مهما كان ذلك العمل!!

رفض القضاء في إصرار

وكما رفض الإفتاء قبل أوانه، رفض القضاءَ حين دُعِيَ إليه..

فعندما رأى الإمامُ الشافعيُّ حالةُ، وضيقَ ذاتِ يدِهِ، وما يُعانيه في الرِّحلة لطلبِ الحديث وبخاصةٍ رحلتُه إلى اليمن - رشحه لَدَى «**الخليفةِ المأمَون**» لتولى القضاء باليمن، ليُتيحَ له طلبَ الحديثِ في غير مَشَقَّةٍ ولا ولا عَناءٍ، إلى جانب تولى القضاء، وهو جدير بهذه المهمة!

وكان «**الخليفةُ المأمونُ**» قد طلب إلى الإمام الشافعى أن يختارَ له قاضيًا يُولِّيه على اليمن!

فوجودها «**الشافعيّ**» فرصةً سانحةً لخِدمة تلميذِهِ أحمدَ، وهو للقضاءِ أهلٌ، وبه جدير!

وعندما ألحّ عليه الشافعى، قال له أحمد:

لقد رفضه في إصرار لعلمه أن هناك قاضيًا في الجنة وقاضيين في النار، وهو التّقِيّ الوَرِع الطاهر!

ورفضه لأن وقته لم يَعُد يَسمَحُ لغير الحديث أن يَصْرِفَهُ عَنْه!!

من المِحْبَرةِ.. إلى المَقْبَرَةِ!

نهاية المطاف!

لقد رفضَ تولِّى القضاء!

ومن قبله امتنع عن الجلوس للإفتاء!

واستمرَّ في طلب العلم ليلَ نهارَ حتى بلغ المدى!

وبرز فيه.. واشتُهر.. وسَمعَ به القاصِ والدانى.. وأصبح من الأشمة الأعلامِ الذين يُشارُ إليهم بالبنَان!

وقال كلُّ مَن رآه:

هذا هو الإمامُ حاملُ لوِاءِ الإسلام!

وعندئذ - فقط- جلسَ للتدريسِ في المسجدِ الجامع ببغداد!

كان ذلك حين بلغَ الأربعين من عمره.. سن بلوغ الرّشْدّ.. تلك السن التى يُبْعَثُ فيها الأنبياء!

إن عصرَه كان عصرَ جَمعٍ وتدوينٍ! ففيه جُمع الفِقْه، ودُوِّن..

وفيه جُمعت اللغة، ودُوّنّتْ.. جُمع الشعْر والنُثر منذ العصر الجاهلى مرورًا بعصر صدر الإسلام وبنى أمية.. لم يبق إلا الحديث.. فلابد أن يُجْمَعَ ويدوّن.. وكان أحمدُ أهلا المهمة، وهو بها جدير!

ولن يصرفه التدريس عن الجمع والتدوين!

كان كل شيء في داخله يناديه أن يُتم ما بدأ.. وكيف لا يتفرغُ لهذا الأمر.. وهو الرائد قبل البخارى ومسلم؟! إنه أستاذهما!!

لقد عَمِلَ أولا على سماعِ الحديث من رُواته.. ثم دوّنه، وحَفِظَه في صدره، مع حفظه مكتوبًا ليكون محفوظا في الصُّدور والسُّطور.

ولما بلغ ما بلغ من حفظِ الحديث وتدوينه، كان لا يعتمد على حفظِه فقط عندما يتلقّى عنه غيره، ليكون مُتَثَبّتًا في كل ما يؤخذ عنه..

فالكتابة قَيْدُ العلم.. وجلّ من لا ينسى!

لقد كان يحمل مِحْبرته، وحقائب كتبه على ظهره!

وقد رآه أحد عارفيه، وهو يعلم كثرة ما رواه من الحديث، فقال له: مرة إلى الكوفة!! ومرة إلى البصرة!!.. إلى متى؟! فقال كلمته الخالدة: «**مع المحبرة إلى المقبرة!!**».

❊ ❊ ❊ ❊

الإمام

ها هو ذا قد بلغ الأربعين..

وإمامُه «**الشافعيُّ**» قد لَقِيَ ربّه بمصرَ فلم يكن بُدٌّ مِنْ أن يَتَّخِذَ له حَلْقةً بالمسجدِ الجامع ببغدادَ يقوم فيها بالتدريس والإفتاء!

لقد أصبح له منهجٌ خالفَ إمامًا يُفَسّر القرآن ويَرْون الأحاديثَ ويَشْرَحُها..

ويُبيّن للناسِ مَذْهبَه في استنباطِ الأحكام..

ويُفتى فيما يُطْرَحُ عليه من مسائل تحتاج إلى فَتْوى!

وعندئذ تفجَّر فقهُه أصولًا وفروعًا.

ونظر تلاميذُه، فإذا هو غزيرُ العلم.. حسنُ الرأى.. حلوُ الحديث.. رفيعُ الذوق.. كثيرُ الحلم.. جميلُ المعشر..

إن أبا حنيفة النُّعمان لم يجلس للإفتاء إلا بعد موت أستاذه «حَمّادٍ» ومحمد بن إدريس الشافعى لم يجلس للإفتاء إلا بعد موت أستاذِه «مالك بن أنس» وهو ذا أحمد بن حنبل لم يجلس للإفتاء إلا بعد موت الشافعى، وهكذا كان الأئمة!!

الإمام أحمد في عيون من عاشروه!

• قال المرُّوذِيّ:

«لم أرَ الفقيرَ في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أحمدَ كان مائلًا إلى الفقراء! مُقَصِّرا عن أهل الدنيا..

وكان فيه حلمٌ..

ولم يكن بالعَجول..

وكان كثيرَ التواضع..

تعلوه السكينةُ والوَقار..

وإذا جلس في مجلسه بعد العصر للفُتْيا لا يتكلم حتى يُسْأَل!

وإذا خرج إلى مسجده لم يتَصَدّرْ!».

هكذا كان الإمام أحمد!

وهكذا تكون الأئمة! رحمه الله.. كان أعبدَ أهل زمانه!

• وصفه من رآه بقوله:

رأيتُ أحمدَ بن حنبل حسن الوجه.. رَبعة (لا هو بالطويل ولا بالقصير) يَخْضِبُ بالحِنّاء خضابًا ليس بالقانى..

في لحيته شعراتٌ سُود..

ورأيتُ ثيابَه غِلاظًا بيضًا..

ورأيتُه مُعْتَمّا، وعليه إزار.

ويقول المرُّوذِيّ أيضًا:

رأيت أبا عبد اللّه إذا كان في البيت عامةُ جلوسِه مُتَرَيِّعًا خاشعا.

فإذا كان خارجَ البيت لم يتبين منه شدة خشوع.

وكنت أدخلُ عليه، والجزءُ في يده يقرأ.

وكان العلماء والمعاصرون له يُعظمونَه، ويجُلونَه، ويوقرونه ويُبَجِّلونَه، ويَقصدونه للسلام عليه.

ويقول ابنه صالح: ربما رأيت أبى يأخذ الكِسَرَ، ينفض الغبار عنها، ويُصَيِّرها في «**قصعة**»، ويصب عليها ماء ثم يأكلها بالمِلْح.

وما رأيته اشترى رُمّانًا، ولا سَفرجلا، ولا شيئًا من الفاكهة إلا أن تكون بطيخة فيأكلها بخبز، أو عنبا وتمرا.

التأدب بأخلاق الرسول ﷺ.

كان أحمدُ حريصًا على أن يتأدَّبَ بأخلاق الرسول ﷺ.لذي بُعِثَ ليتمَ مَكارمَ الأجلاق، وأدبه ربُّه فأحسن تأديبَه فكانَ على خُلُق عظيم!

كان خلقُه التواضعُ منذُ نشأتِه حتى نهاية حياتِه. عرف شيوخُه منه هذا التواضُعَ فأشادُوا به، وقربوه من مجالسهم. وقَدَّرُوه حقَّ قدره!

وعرف له زملاؤه في الدرس هذا الفضل فاعترفوا به، وشهدوا له!

فذات يوم طرح أحدُ شيوخِه على طلابه مسألة يريد رأيَهم فيها..

وبدا عليه الغيظ حين عجزوا، فصاح فيهم: ألا تفقهون؟! أليس فيكم رجلٌ رشيد؟!

وهنا قال الطلاب:

كيف لا نفقه، وفينا: «**أحمد بن حنبل**»؟

فقال الشيخ: أين هو؟

فقالوا: ها هو ذا قادم!!

ونظرَ الشيخُ فإذا هو قد جلس حيثُ انتهى به المجلس كما كانت عادتُه!

فأشاروا إليه إشارةَ تقديرٍ واحترامٍ وتبجيل: ها هو ذا أحمد!

فقال الشيخ: تقدم يا أحمد.. وتعالَ هنا واقترب منى!

وهنا وقف أحمدُ في تواضع وأدب، وقال:

«**لا أستطيعُ أن أتخطّى الرقابَ!**»

فهتف الشيخ من أعماقه، وقال:

اللهُ أكبر!.. اللهُ أكبر!

هذا أولُ الفِقْهِ يا أحمد!.. وقد أشرنا إلى هذه القصة من قبل!

فتشبهوا إن لّم تكونوا مثلهم!

كان أحمدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حريصًا في حَياتِه على اتباع سنة رسول الله ﷺ.رصًا جَعَلَه يقتدى بهديه، ويتشبه به في كل أمور الدنيا والدين!

فما حفظ من حديث إلا وعَمِلَ به..

كان عملُه.. وكانت حياتُه.. وكان سلوكُه تطبيقًا عمليّا لحديث رسول الله ﷺ.

لقد كان نموذجًا للمسلم، وعُنوانا للإسلام في أسمى صُوَرِه!

فمن أراد أن يرى «**أحاديثَ**» رسول الله ﷺ.ترجمةً إلى واقعٍ حَيّ يمشى على الأرض فلْيُلْق نَظْرةً على الإمامِ أحمدَ.. وهكذا يكون المسلمُ، فالإسلام قولٌ وعَمَل!

وكما كان الرسول ﷺ.**قرآنا**» يمشى على الأرض كان الإمام أحمد «**حديثًا**» يُعَايشُ أهلَ زمانه!

فيرَوْن فيه أدبَ الرسول ﷺ.لذي أدّب به أمته!

• لقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُضربُ به المثلُ في اتباعِ السُّنة، واجتناب البدعة!

• وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يدَعُ قيامَ الليل قط!

وله في كل ليلةٍ «**خَتمة**».

وكان يُسِرّ ذلك عن الناس.

• ويقول أبو عِصْمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

بِتُّ ليلةَ عند أحمدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجاءنى بماء فوضعَه.

فلم أصبح نظرَ إلى الماء، فوجده كما هو!

فقال:

«**يا سُبْحَانَ الله!**

رجلٌ يطلبُ العلمَ، ولا يكون له وِرْدٌ من الليل؟!!»

لقد كان شعارُ طالب العلم قول الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282]

فبالتقوى يلين لنا الحديد!!

سماحته

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متسامحا حتى ولو كانت الإساءة فادحة!

وَشَى به رجلٌ إلى الخليفة وزعم أن أحد العَلَوِيِّين الثائرين على الخليفة يختفى في داره!

ولو صَحّت هذه التُّهمة، فإن عقابَها القتلُ!

قتلُ الإمام أحمدَ عقابًا له على إخفائه.. عدوّا للنظام!

فلما تبينَ للخَليفَةِ كذبَ الواشى، وبراءةَ الإمام أحمد مما اتُّهِمَ به، أرسل «**الواشي**» إلى الإمام أحمدَ مُقَيّدا مَرْبُوطًا بالسلاسل ليُفْتِيَ أحمدُ برأيِ فيما يَسْتِحقّ من عِقَاب! وهنا قال الإمام أحمد:

لعقة يكون صاحبَ أولاد يُحْزِنُهم قَتْلُه!

الجهر بالحق!

إن تواضعَه الذي اتصف به لم يَحُلْ بينه وبين الوقوف في وجه الباطل!

وإن حياءَه الذى لازمه طوال حياته لم يَمْنَعْه من الجهرِ بالحق..

إن الساكتَ عَنِ الحَقّ شيطانٌ أخرسُ!

وإن المؤمنَ الحق لا يَخْشى في الله لومةَ لائم.. يقول الحقَّ ولو على نفسه..

وكذلك كان أحمدُ.. وله في رسول الله ﷺ: أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ!

مجلسه

• وكان مجلسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاصا بالآخرة، لايُذكر فيه شيء من أمر الدنيا!

• وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصبر الناس على الوَحْدة لا يراه أحد إلا في المسجد، أو جنازة، أو عِبادة!

مَلْبَسُه

• وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلبس الثيابَ النَّقيةِ البياض، ويتعهد شاربَه، وشعرَ رأسه، وبدَنَه!

هكذا يكون الإمام!

مَن له استعدادُ: «**أحمد بن حنبل**» وطموحُه في طلب العلم، وإصرارُه على أن يمتصَّ الآراء والأفكار من كل نبع - جديرٌ بأن يكون من أوسع الناس درايةً بكتاب الله!

وأعمقِهم فهمًا لحديث رسول الله صص.

وأكثرهم جَمْعًا للسنة..

وأعظمهم وإحاطةً بفتاوى الصحابة والتابعين.. هذا إلى جانب اطّلاعة على مختَلِف الآراء الفقهية في عصره..

وإلمامهِ بمذاهب المتكلمين..

وحذفه للغةِ وأسرارِها..

وإتقانِه الفارسيةَ إلى جانب العربية.

يقول فيه إبراهيم بن الحربى!

«**رأيت أبا عبد الله، كان اللّه جمعَ له علمَ الأولين والآخرين**».

الرجل خير الرجال..

إلى جانب ذاكرتِه الواعية الحافظةِ اللاقطةِ نراه صبورًا على المكاره في سبيل الحق.

ينسى الإساءة، ويُسامح من اعتدى..

لا يخشى في الحق لومة لائم!

يقف من وراء الحق ثابتًا لا يلين..

ألا وإن خيرَ الرجال مَ، يَظَل ثابتًا على مبدئه مادام يعتقد صوابَه.

ولقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزيهًا. عَفيف اليَد واللسان.. أمينًا.. ورِعًا يتوخّى الحلال في مطعمه ومشربه ولبسه.. لا يساومُ في دينه!

ولا يَخْضَعُ لغير الله!

يتمسك بالحقائق الثابتة..

كان لا يقبلُ صلةً من الخليفة، أو غيره من رجالِ الدولة..

وكان يأكلُ من عَمَلِ يَده، وما خلّفه له والده من رزق!

• ويصفه أحد معاصريه فيقول:

«ما رأيت أحدًا أعلمَ بفقهِ الحديث ومعانيه من أحمد».

• قال المُزَني:

«قال لى الشافعيّ: رأيتُ ببغداد شابًا إذا قال: «حدثنا» قال الناسُ كلُّهم: صَدَق!».

•وقال حرملة:

سمعت الشافعيّ يقول:

«خرجتُ من بغداد فما خلفت بها رجلًا أفضلَ، ولا أعلمَ ولا أفقَهَ، ولا أتقى من «أحمد بن حنبل».

• وقيل لأبى مُسْهر الغَسّاني:

«تعرفُ من يَحَفَظُ على هذه الأمةِ دينهَا؟!.

قال: شابّ في ناحية المشرق!

يعنى «**أحمد!**».

• وقال الهيثم بن جميل الحافظ:

«إن عاش أحمد سيكون حجةً على أهلِ زمانه».

• وقال عبد الرّزاق:

«ما رأيت أحدًا أفقه، ولا أورعَ من أحمد بن حنبل!».

عن الدنيا ما كان أصبَره!

وبالماضين ماكان أشبهَه!

وبالصالحين ما كان ألحقه!

عرضت له الدنيا فأباها!

والبدع فنفاها!

كان أحمدُ صاحب فقه!

صاحبَ حفظ!

صاحب حديث!

صاحب معرفة!

حُماة الدين وحُرّاسُه

عَدّ المُزَنِيّ خمسة كانوا حماة الدين وحُرّاسه أقاموا الدين وحَمَوْه.. وحَرَسُوه وحَفِظُوه..

1 – أحمدُ بن حنبل «يومَ المِحنة!».

2 – وأبو بكرٍ الصّدّيق «يوم الرِّدّة!».

3 – وعمرُ بن الخطاب «يومَ السقيفة!».

4 – وعثمانُ بنُ عَفانَ «يومَ الدَّار!».

5 – وعليُّ بن أبى طاب «يوم الجَمل!».

لقد قرن موقفَه يوم المحنة بموقف الخلفاء الراشيدين الأربعة في تلك الأيام التى مَرّوا بها، وكانت لهم مواقفهم العظيمة في نصرة الدين، وتوحيد كلمة المسلمين!.

أدبُ الأئِمَّة

لقد ضرب الأئمة الأربعةُ: مالكٌ، وأبو حنيفة، والشافعيُّ، وأحمد بن حنبل المثلَ الأعلى في أدب التَّلْمذة والتَّلقى، وتقدير شيوخهم، واحترامِهم، والتحدثِ بفضفهم!

ولم علم أتباعُهم في كل الدنيا من الأحناف، والشافعية، والمالكية والحنابلة ماكان عليه أئمتُهم من احترام، ووُدّ، وتقدير، وإجلال - مادار بينهَم خلاف، ولا احتدم جدالٌ. فقد قال أهل العلم:

«إن اختلافَ الرأيِ لا يُفْسدُ للوُدّ قضية!!».

وها هو ذا عبدُ الله بنُ أحمدَ يقول:

قلت لأبى: أيّ رجل كان الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنى سمعتُك تُكثر له الدعاءَ في صلاتك؟!

فقال: يابنى، **كان الشافعيُّ - رحمه الله - كالشمس للدنيا وكالعافية للناس!**

فانظر؛ هل لهذين من خَلفٍ، أو عنهما من عِوَض؟! وها هو ذا الشافعى يقول في حق الإمام أحمد:

«خرجت من بَغدادَ، وما خلّفتُ فيها اتقى ولا أفقهَ من ابن حنبل!».

أحمد وأمه!

لم ينسَ أحمد أمَّه في كل رحلاته، ولم تَنْسَهُ أمه. بل كانت تشجعه حين تودعه!

وكان أحمدُ بارّا بأمه في كل مراحل حياته!

لقد سقتْه الحنانَ، وغَرَسَت في قلبِه الإيمانَ الذي علّمه أن أحق الناسِ بالرعاية «الأم»!!.

إنه لايَنْسى لأُمّه أنها رفضَت أن تقترنَ بغير أبيه بعد موته!

على الرغم من شبابِها، وإقبالِ الخُطّاب عليها!

لقد وهبت حياتَها له بعد موتِ أبيه.. وكانت «**مَدْرسَتَهُ الأُولى!**».

لقد لَقّنَتْه مُنذ صباه كُلَّ ماحفظه من سِيَرٍ.. وقَصصٍ للبطولة.

ولقنته منذ الصِّغَر أحاديثَ رسول الله ﷺ.

ورسّخَتْ في أعماقِه قيمةَ الإسلام الفَاضِلة..

لقد كانت تحفظُ مَفاخِرَ قومها.. وأيامَ العرب، ومآثِرَ الرسول ﷺ.أصحابَه وتُلقّنُها وحيدَها.

لقد وضعت أقدامه على الطريق!

وها هو ذا يقترب من نهايته!

إنه لاينسى فضلها!!

إن ذاكرتُه تختزنُ كلّ ما قدمته له حتى وصل إلى ما وصل إليه.. لقد اختارت له «**المكتب**» الذي يتعلَّمُ فيه القرآن..

واختارت له «**الشُّيوخ**» الذين يجلس إليهم بعد أن حفظ القرآن ليتلقى على أيديهم الفقْه، والحديث.

وإنه لَيَذْكُرُ أنها كانت تخافُ عليه وهو صغير بَردَ الشتاء حين كان يخرجُ لدرسِ الحديثِ قبلَ أَذانِ الفجر!

وفي هذا يقول:

«**كنت رُبَّما أردتُ البُكور في «الحديث» فتأخُذُ أُمّى بثيابى وتقول: حتى يؤذن المؤذِّنُ للفجر!، أو حتى يُصبحَ الناسُ**»!

لقد كان، وما يزال حريصًا على إرضاء أمّه حِرصَه على العلم! وليس أدلّ على هذا من أنه حين وفدَ إلى بغداد «**عالم عظيم**» وأقام على الصِّفَّة المقابلة لدار «**أحمد بن حنبل**».. وعندئذ فاض نهر دجلةِ، وارتفع الموجُ حتى إن الرشيدَ ترك قصره، ونزل بأهلهِ إلى سُفُنٍ له.. ولكن طلب العلم أسرعوا إلى العالمِ العظيم في الزوارق إلى الضِّفَّةِ الأخرى.

ودعاه رفاقُه إلى العُبورِ معهم إلى الشيخ العظيم وحار أحمدُ بين الواجب والعاطفة!! فأبى العبورَ معهم من أجل إرضاءِ أُمّه، وخوفها عليه، وقال لهم: وهو في الخامسة عشرة من عمره، وفي عيَنيه دموع:

«**أُمّى لا تَدَعُنى أركبُ الماءَ في هذا الفَيضَان!**».

وترك العبور إلى شيخه، وهو حزين لكنه كان راضى النفس!

وعاد إلى أُمّه لتطمئنّ عليه!

إنه حريص على ألا يُرَوّعها، أو يُقْدِمَ على ما يُزْعِجُها، أو يُسبِّبَ لها الخوفَ والفزع!

إن أمّه رفضت الزواج من أجله، لكى تتفرغ للعناية به ورعايته!!

فليتفرغ هُوَ لَها. وليتوقَّفْ عن الزواج لكيلا يُدخلَ عليها سيدةً أخرى تُنازعها السيادة على الدار ولم يتزوج حتى ماتت.. وكان قد بلغ الثلاثين، ولقد كان أحمد رجلا مثاليا! وقمة فى الخلق الرفيع!!

التقاءُ علمِ الحديثِ والآثارِ مَعَ الفقه

كان إقبالُ أحمدَ على الفِقْهِ - كما سبق- دافعًا إلى جمعِ أحمدِ مصادره وهو «**السنة**» التى تشمل كلَّ ما روى عن الرسول ﷺ.ن قَولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ.

وإلى جانب جمعه للسنة، كان يجمع أقوال بعض التابعين، وفَتاوَاهم إذا كانوا قد بلغوا منزلةً تؤهلُهم لهذه القتاوى.

ومن أجل هذا كان جمعهُ للسُّنَّة في نفس الوقت اشتغالًا بالفقه، أي: «**فقه السنة!**».

فهو مع تَفَرُّغِهِ للحديث لم يَنْقَطِعْ عن الفقه.. بل كان يقتبسُ من فُقهاء عصرِه ما يَرى فيه لمًا بما لم يكن يعلم.

إنه حين التقى بالشافعى في مكة أولَا، وفي بغداد أخيرًأ، أخذ منه منهجاجَه الذى سَنّه ليَلزَمَه المجتهدُ في طلب أحكامِ الفروع من الكتاب والسنة، وهو ما سُمّى:

«علمِ أصولِ الفِقه»

لقد كان عند أحمدَ المادةُ الفقهيةُ التى يستطيعُ أن يغوصَ فيها ملْتَزِمًا المنِهاجَ الذي سنّه الشافعيُّ مضيفا إليها ما انتهى هو في دراساته إليه.

إن هذه المادة هى ما جمعه من أحاديثَ، وسُننٍ، وفتاوَى..

لقد كانت مَعينًا أمدّه بفقه أثرى قويم.

وقد استنبطَ بالبناءِ عليه، وخَرّجَه تخريجًا حَسَنًا، وبهذَا التقَى عنده:

علمِ الأحاديث والآثارِ مع الفقه[1]

بل إنه وهو ينقلُ السُّنَّةَ كان ينقل أساسَ الفقِه ومصدَرَه.

ولهذا عَدّه البعضُ في ضمن المحُدِّثين.

ويقول ابن جريرٍ الطبَّريّ:

كان أحمدُ مُحدِّثًا، ولم يكن فقيهًا!

لقد تشابه فِقْهُه مع فقِه «**أهلِ السُّنّه والآثارِ**»

لاقترابِه منهم، ولاحترامِه آثار الصحابة.

الأصولُ التى بنى الإمامُ أحمد عليها مذهبَه

بنى الإمامُ أحمدَ فِقْهَهُ على خمسة أصول أوردها ابن القيّم في كتابه «إعلام الموَقِّعين» وهي:

الأصل الأول: من الكتاب والسُّنة، إذا وُجد النصُّ أفتى بموجَبِهِ.

ولم يلتفتْ إلى ما خالفه، ولا مَن خالفه كائنا ماكان.

الأصل الثاني: ما أفتى به الصحابة.

الأصل الثالث: إذا اختلفت أقوال الصحابة تخير من أقوالهم أقربها إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم.

الأصل الرابع: العمل بالحديث الضعيف (وهو الحسن عنده) إذا لم يجدد أثرا يدفعه، أو قول صحابى، أو إجماعا على خلافه.

(1) الآثار: جمع أثر، ويراد به ما خلفه السابقون، والخبر المروىّ، والسنة الباقية.

الأصل الخامس: القياس عند الضرورة، وذلك إذا لم يجد في المسألة نصا ولا قولا للصحابة أو واحد منهم من أصول فتاويه.

فهذه هى الأصول الخمسة.

وقد يتوقف في الفتوى في الحالات الآتية:

- إذا تعارضت الأدلة عنده..
- أو لاختلاف الصحابة فيها..
- أو لعدم اطلاعه فيها على أثر، أو قول أحد من الصحابة والتابعين.

نظرة مجملة على توزيع مذهب الإمام أحمد

المذهب الرابع من مذاهب الفقه الإسلامى: مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

ويعمل به في السعودية وقطر.

ويعتنق هذا المذهب الأزهريون الذين يدرسون «**فقه الحنابلة**» في الأزهر الشريف من مصر وغيرها فهذا المذهب ينتشر على سواحل الخليج، وفي بلاد الحجاز وله أتباع متفرقون في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

آثارُهُ رضى الله عنه

كثيرا ما يتردّد على الألسنة:

***تلك آثـارُنـا تَـدُلّ علينا ***

ومن آثار الإمام أحمد الباقية على مر الزمان: «**المُسْنَد**».

وقد جَمَع فيه أكثرَ من أربعين ألفَ حديث أُسْنِدَت إلى أكثرَ من سَبْعمِائة صحابي.

وأحاديث المسند - كما عرفت - ليست مرتبة حسب أبواب الفقه: (الطهارة - الصلاة - الصوم - الزكاة .... الخ).

ولكنها تخضع في ترتيبها لأسماء الرواة أو البُلدان التى رويت فيها! فمثلا «**مُسْند علي**» يجمع الأحاديث التى رواها الإمام على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبى ﷺ.

وكان هذا «**المسند**» **ما يزال في مُسَوّداته» عندما أحسَّ أحمد بدنو أجله!** فاسمعه أبناءه، وتولى ابنه:

«**عبد الله**» إتمامه بجمع مسندات أبيه، وإضافة ما يناسها إليها مما يأتى:

1 - كتاب الزهد الذى ذكر فيه زهد الأنبياء والصحابة، والخلفاء، وبعض الأئمة.

2 - كتاب الصلاة.

3 - كتاب المناسك.

4 - كتاب الناسخ والمنسوخ.

5 - كتاب المقدم والمؤخر في كتاب اللهز

6 - فضائل الصحابة.

7 - كتاب العلل.

وحَسْبُه كتاب «المسند».

لقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدوةً في الوَرَع والعبادة ومثلًا في سِعَة الحفظِ والدِّراية.

يَعُدُّه الفقهاءُ علَمًا من أعلامِ الفقهِ الإسلامى، وأحدَ أصحابِ المذاهب الأربعة.

ويعده المحدِّثون أحدَ أعلام الحديث القُدامى.. وممن رووا عنه: البخارى ومسلم.

ومسنده الذي حدثتك عنه يشتمل على:

«**ثمانية عشرة مسندًا**».

أولها: مسند العشرة المبشرين بالجنة.

واشتهر منه أربعون ألف حديث بالمكرر.

وقيل: ثلاثون ألفا.

وليس فيه حديث موضوع.

وقد الف العلامة ابن حجر كتاب في الدفاع عن مسند أحمد!

شيوخه الذين تلقى الحديث عليهم

ليس سهلًا إحصاءُ أولئك الشيوخ الذين تلقى الحديث على أيديهم وسمعه منهم خلال رحلاته إلى البصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، واليمن، وبلاد فارس!

إن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يترك مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر إلا وقصده.. ورحل إليه.. طالبا للسنة والفقه.. وما يتصل بهما في قريب!

وأول أولئك الشيوخ: كبير المحدثين في العراق: **هُشَيم بن بشير السِّلميّ.**

وثانى أولئك الشيوخ: إمام الرُّواة بمكة المكرمة: سُفيانُ بن عُيَيْنة.

وثالث أولئك الشيوخ: **الإمام الشافعي** عالم الحجاز.

ورابع أولئك الشيوخ: قاضى قضاة الخلافة العباسية: **أبو يوسف صابح أبى حنيفة.**

وخامسهم: محدث اليمن الكبير: **عبد الرزاق بن همام الصنعاني**.

أما بقيتهم فمن الصعب حصرهم!

وكان ابنه «**عبد الله**» حافظ تلقى الحديث عن أبيه وعن غيره.

وقد ضم المسند زيادات عبد الله من روايته عن أبيه. لقد كان «**أحمد**» يكره كتابة «**العلوم الإسلامية**» ماعدا الحديثَ، حتى لا يكون شيء من المصادر الإسلامية مدونا غير الكتاب والسنة؛ فلا يدون فقه أي مذهب، لكيلا يستغنى الناس عن الرجوع إلى مصدر الفقه الأول، وهو نصوص كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

ولقد روى أن عبد الله بن أحمد سأل أباه قائلا:

ولم كرهت وضع الكتب، وقد عملت «**المسند**»؟!

رضى الله عنه، وجزاه عن مسنده خير الجزاء!

المسانيد والأئمة الأربعة

المسانيد: جمع مسند، وهى كتب تجمع الأحاديث بطريقة خاصة تختلف عن غيرها من كتب الاحادث.

يراعى فيها ترتيب رواتها من الصحابة بحيث توافق حروف الهجاء أو السوابق الإسلامية: كالعشرة المبشرين بالجنة، والخلفاء الراشدين، وأهل بدر، وأهل الحديبية، ومسلمة الفتح، ثم النساء.

أو يجمع على القبائل والأنساب، كمسانيد بني هاشم، ومسانيد الحسن والحسين، ونحو ذلك.

ومن المسانيد:

1 – مسند أبى حنيفة الذي يعزى إليه.

2 – ومسند الشافعي.

3 – ومسند أحمد.

وللإمام مالك كتابه الذي وطّأه وسهله للناس وسماه «**الموطّأ**» ومعناه الممهَّد، المنقَّح، وقد رتبه على أبواب الفقه.

ومسند أحمد أصل كبير، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير، ومسموعات وافرة.. فجعله إماما معتمدا.

وعند التنازع ملجأ ومستندًا.

وقال: إن هذا الكتاب قد جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفا.

فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ.ارجعوا إليه.

فإن كان فيه.. وإلا فليس بحجة.

لقد جمع فيه ما لم يتفق لغيره!

قيل: إنه كان يحفظ ألف ألف حديث!

وقد اشتهر ابن حنبل بشيئين:

(1) الفقه، وقد وضع مذهبه.

(2) الحديث، وقد ألف فيه كتابه «**المسند**».

المِحنة

في عهد الإمام أحمد كانت هناك فرقتان:

(1) «أهل السنة»، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل.

(2) «المعتزلة» وعلى رأسهم أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ببغداد.

وزيّن جماعة من المعتزلة، وعلى رأسهم زعيمهم ببغداد للخليفة المأمون – وهو يؤمئذ من المعتزلة – القول: بأن القرآن مخلوق، وليس قديما، فالقديم واحد فقط هو الله سبحانه وتعالى.

وطلبوا من المأمون أن يأمر الناس بما يراه، وأن يحملهم على القول بخلق القرآن.

ولكن الإمام أحمد، ومعه أهل السنة عارضوا هذا القول، وقاموا بحملة على المعتزلة، وأعلنوا أن «**القرآن قديم**» لأنه كلام الله، ولهذا حين نقرؤه نقول: قال الله. والله قديم لا أول لوجوده، وكلامه قديم غير مخلوق!

وأراد المعتزلة بقوة السلطان أن ينتزعوا القول بخلق القرآن من الإمام أحمد إمام أهل السنة.. فالناس يأتمّون به، وهو قدوة لهم.. يقولون ما يقول به! لكن الإمام أبى وامتنع!

فهدده الخليفة المأمون، فلم يزده التهديد إلا إصرارًا على رأيه، وتمسكًا به، وثباتًا عليه!

فاستدعاه المأمون إليه وكان بـ «**طَرَسُوس**»، فأُرسل إليه الإمام أحمد مُكبَّلًا بالحديد!

وفي الطريق إلى «**طرسوس**» بلغهم موت «**المأمون**» فأعيد الإمام أحمد إلى بغداد!

وحاول الخليفة «**المعتصم**» - وكان على مذهب المعتزلة- أن يجربَ «**الوعدَ**» مع أحمد قبل «**الوعيد**» فأبى وثبت على مبدئه ودافع عن عقيدته!

فأمر بضربه بالسياط على أعين الناس لعلهم يشهدون، وعذبه، وسجنه!

ولكن الإمام أحمد ظل ثابتا كالجبل، متمسكا بعقيدته، وبذل نفسه في ذات الله!

وجاء الخليفة «الواثق» بعد «**المعتصم**»، ولم يكن مغاليا في الاعتزال فخفف عنه، ورضى منه أن يختفى عن أعين الناس، وأن يلزم بيته، ويكف عن التشهير بالمعتزلة في قولهم بخلق القرآن!

وهدأت الفتنة إلى حدٍّ ما حتى تولى الخلافة «**المتوكل**» وكان على مذهب أهل السنة فناصرهم، ووقف إلى جانبهم، وقرب الإمام أحمد، ووصله، وأجزل العطاء لأهل بيته!

واعتذر إليه عما حدث!

وخرج منها وقد عصمه الله من شهر هذه الفتنة! وأصبح فخر العلماء، وموضع تكريمهم.

• قال ابن المديني:

إن الله أعز الإسلامَ برجلين:

(1) أبى بكر يوم الرِّدّة!

(2) وأحمد بن حنبل يوم المحنة!

• وقيل لبشر الحافى حين ضُرب أحمد في المحنة:

هلّا قمت وتكلمت؛ كما تكلم أحمد؟!

فقال: أنا لا أقوى عليه!

إن أحمد قام مقام الأنبياء، أدخل الكير فخرج ذهبا إبريزًا.

• وروى أن أبا بكر المروزيّ جاءه يومًا أثناء المحنة، وقال له: يابن حنبل، هؤلاء قدّموك للضرب، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29].

فقال: يامروزى: اُخرج، وانظر!

قال: خرجت، ونظرت، فرأيت خلقًا كثيرًا، والصحف والأقلام في أيديهم!

فقلت: أي شيء تعملون؟

فقالوا: ننظر ما يقول أحمد، فنكتبه!

فرجع إلى أحمد، وأخبره خبرهم.

فقال: يامَرُوزيّ، أفأُضلُّ هؤلاء؟!

كلّا؛ بل أموت، ولا أُضِلُّهم!

قال المرُوزِيّ: رجل هانت عليه نفسُه في الله تعالى!

وفاة رابع أئمة الفقه الإسلامى
(164 - 241هـ)

توفى الإمامُ «أحمدُ بن حنبل» بعد حياةِ حافلة بالعطاء في خدمة حديث رسول الله ﷺ. والدفاع عن دينه في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة 241 هـ، ودُفِنَ ببغدادَ مَسْقَطِ رَأسِه.

وخرج الناس بنعشه، والخلائق حوله لا يعلم عددهم إلا الله! حتى قيل: إن الذين شيعوه كان عددهم يقرب من مليونين من البشر!

ويقول عبد الوهاب الوراق:

ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية، ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع في جنازة أحم.

رحمه الله، وجزاه عنا خير الجزاء!

قال قتيبة: **مات سفيان الثورى ومات الورع!**

ومات الشافعى وماتت السنن!

ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع!

نرجو الله أن يعصمنا من البدع، ويهدينا إلى العمل بكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

إنه سميع قريب مجيب الدعاء.